

من أعلام القضاء

الشيخ صالح بن أحمد الخريصي
(١٣٢٧هـ. ١٤١٥هـ)

إعداد محمد بن عبد الله المقرن

اسمه:

هو العالم الورع الشيخ صالح بن أحمد بن عبدالله بن سعد بن حسين الخريصي، كانت أسرته تقيم في الزلفي، فانتقل والده أحمد إلى بريدة عام ١٢٩٠هـ.

مولده:

ولد - رحمه الله - في مدينة بريدة عام ١٣٢٧هـ وتوفي والده وهو في طفولته.

نشأته:

نشأ - رحمه الله - يتيماً فكفله أخواته وعُيِّن بتربيته وتوجيهه الوجهة الصالحة، فحفظ القرآن الكريم وجوّده على يد الشيخ صالح بن كريديس رحمه الله. وكان في صباه صالحاً متعبداً، فحينما كان عمره تسع سنوات بعثته والدته لخراف التمر

في إحدى المزارع فاستبطنته فأرسلت في أثره أخاه الكبير ، فوجده في عرض الطريق قد ألقى «مطحن الخراف» وقام مصلياً .

مشايخه:

بعد أن أتم حفظ القرآن الكريم شرع في طلب العلم فقرأ على الشيخ صالح بن إبراهيم بن كرديس مبادئ في الأصول والنحو وقرأ على الشيخ محمد بن عبدالله بن حسين الفرائض والفقه ، وأخذ عن الشيخ عبدالله بن محمد بن سليم كثيراً من الكتب المطولة ، كما لازم الشيخ عبدالعزيز بن إبراهيم العبادي مدة من الزمن ، ولعل شيخه الذي لزمه مدة طويلة واستفاد منه هو الشيخ عمر بن محمد بن سليم ، ولما تولى الشيخ عبدالله بن حميد القضاء في بريدة لازمه واستفاد منه .

طلابه:

تخرج عليه عدد كبير من العلماء ومنهم :

- ١- الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله العجلان ، رئيس محاكم القصيم سابقاً والمدرس بالمسجد الحرام حالياً .
- ٢- الشيخ علي بن عبدالعزيز المشيخ مساعد رئيس محاكم القصيم سابقاً .
- ٣- الشيخ محمد بن عودة .
- ٤- الشيخ عبدالله بن عثمان البشر .
- ٥- الشيخ صالح بن إبراهيم البليهي - رحمه الله .
- ٦- الشيخ عبدالله بن محمد الدويش - رحمه الله .
- ٧- الشيخ عبدالله بن إبراهيم القرعاوي .
- ٨- الشيخ عبدالعزيز المسند .
- ٩- الشيخ إبراهيم بن علي الضالع .

- ١٠- الشيخ سليمان بن صالح الخريصي (ابن المترجم).
١١- الشيخ عبدالله بن صالح الخريصي الابن الثاني للمترجم وغير هؤلاء كثير.

أعماله:

لما تمكن في العلوم الشرعية والعلوم العربية، وصار له ذكر في أوساط بلده، اختير لتولي إمامة مسجد «الخريصي» بعد وفاة أخيه الشيخ عبدالرحمن وذلك في عام ١٣٥٣ هـ فجلس - رحمه الله - للتدريس والتف حول زملائه واستفادوا منه .

ولما سافر الشيخ عمر بن سليم إلى الرياض سنة ١٣٥٩ هـ عرض عليه أن ينوب عنه في القضاء والتدريس وإمامة مسجده، فقبل ذلك لإنيابة القضاء فقد رفضها، ولكنه تحت إلحاح شيخه وأعيان بلده قبل ذلك .

ولما ولي الشيخ عبدالله بن حميد - رحمه الله - القضاء في بريدة أصبح ينيبه إذا سافر إلى جانب عمل الشيخ صالح في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وما زال مجدداً في العلم حتى عام ١٣٧١ هـ أمر بالقضاء والتدريس في بلدة الأسيح ثم نقل منها عام ١٣٧٢ هـ إلى قضاء الدلم بالخرج ولم تطل مدة ولايته، فعاد إلى بلده بريدة، وفي عام ١٣٧٣ هـ عين مساعداً لفضيلة الشيخ عبدالله بن حميد في قضاء بريدة، فقام بذلك مع التدريس وإمامة مسجده المعروف ببريدة .

وفي عام ١٣٧٧ هـ طلب الشيخ عبدالله بن حميد - رحمه الله - إعفاه من القضاء ليتفرغ للتدريس والإفتاء، وتم تعيين الشيخ صالح الخريصي - رحمه الله - رئيساً لمحاكم القصيم وما زال في هذه المنصب حتى أحيل إلى التقاعد عام ١٤٠٧ هـ .

صفاته:

وكان من أظهر صفاته - رحمه الله - «الحلم والأناة» وهما الخصلتان اللتان يحبهما الله ورسوله، فلم يكن يغضب لنفسه قط، وربما أغلظ له أحد الخصوم بالقول، فلا يردعه

بقول أو فعل ، وكان الخصمان يتلاسنان أمامه في مجلس القضاء ، وهو صامت هادىء لا يقاطعهما ولا يعنفهما ولا يضجر منهما ، ولا يدخل بينهما ، بل يدعهما يفيضان بما عندهما حتى يسكنان ، ثم يبيني حكمه بعد ذلك ، على أساس متين من بيته ، أو قرار هيئة نظر ، وكان مجلسه في القضاء مهيباً ، وقلَّ أن يحكم على أحد فلا يرضى حكمه وكان يسعى بالصلح ما وسعه ذلك ، ويشخص بنفسه إلى المتخاصمين ليصلح بينهم ، وكان مجرد تدخله في الصلح بين أهل البادية كافياً لكي يصطلحوا بينهم ، إعزازاً وتقديراً له ، بل ربما طلبوه شخصياً لإصلاح ذات بينهم !

وكان أحب شيء إليه هو الصلح بين الناس ، كان لا يدخر جهده لإصلاح ذات البين حتى لو اضطره ذلك لجهود مضاعفة ووقت مستقطع ومسافات بعيدة .
دخل عليه في إحدى المرات رجل طلق زوجته بشهود عدول وله معاملة تدور في المحكمة فأغاظ على الشيخ بالقول ، فقال له رجلك تلطف هداك الله ، فابتسم الشيخ ، وقال : دعه يقول ما في نفسه .

وكان لشد نزاهته ، وتجرده من الهوى ، وحرصه على تحري العدل ، يتأني في استصدار حكمه ولقد عرضت عليه قضية أحد الأشخاص فسار بها سيراً حسناً ، ولما احتاج في حسمها إلى رأي ثقة عدول من الرأي والنظر من خارج المحكمة . كتب إلى عدد من أهل الثقة ، فشخصوا مع هيئة النظر بالمحكمة إلى موقع الخلاف ، وحرروا رأيهم في الموقع ، وبعثوا له وكانت تلك عاداته حين يريد المزيد من الرؤية والكثير من الضوء حول القضايا التي يحكم فيها .

وكان الخصم إذا أساء القول على الشيخ في مجلس القضاء ، يأتيه من غد في الجلسة التالية ، فلا تجد الشيخ قد حمل عليه غلاً أو أضمر عليه حقداً .

يقول ابنه الكبير الشيخ سليمان : جلس والدي للقضاء في بريدة نيابة عن قاضي القصيم الشيخ عمر بن محمد بن سليم ، وكان أول وقته يقضي في منزله في الصباح وبعد العصر ، وأذكر أنه أنهى إحدى عشرة قضية بعد صلاة العصر ، وربما جلس في ضحوة عيد ليحكم

بين خصمين متنازعين . . .

لقد كان - رحمه الله - زاهداً في الدنيا، بسيطاً في ملبسه ومسكنه ومركبه لا يتأنق بها ولا يختار لها، وكانت الدنيا لا تذكر في مجلسه، وقلّ أن يكون إلا ومصحفه بيده أو يقرأ القرآن عن ظهر غيب قلّ أن يفارق مسجده، فبعد قضاء الصلاة، وانتهاء درسه، يكتث في خلوة المسجد، تالياً للقرآن ذاكراً لله، وربما دخل عليه صاحب حاجة من حوائج الدنيا، ويده ورقته، فيضع عليها الشيخ ختمه وهو مواصلاً لقراءته لا يقطعها.

وكان - رحمه الله - عابداً لله، يقوم الليل، ويحرص على النوافل، يقول ولده الأكبر (الشيخ سليمان): لقد حج والدي فرضه سنة ١٣٤٧ هـ ولم يدع الحج بعدها سوى موسم واحد، وكان يتابع العمرة، ويصوم التطوع، ولو قلت لك: إنه يقوم الليل كله، لما كنت مبالغاً، بل كلما أفاق من نومه صلى ما كتب الله له، وكان يصلي بالناس في التراويح بثلاث وعشرين ركعة، ويختم القرآن مرتين في شهر رمضان، وربما ختمه ثلاث مرات، وربما قرأ في ركعة القيام بجزء أو نصف جزء، وكان يعتكف العشر الأواخر من رمضان، وربما سمعت قراءته في خلوة المسجد وأنا مقبل على المسجد وكان يحرص على ختم القرآن في آخر نهار عرفة، ويتنفل بعد صلاة المغرب بثلاث تسليمات يطيل في الركعتين الأخيرتين - رحمه الله - .

وكان قبل غروب الشمس بنصف ساعة يقوم من مجلسه مهما كانت أهميته، ليورد فيستهل إلى الله ويسبحه ويذكره حتى غياب الشمس، وكان إذا عاد من الوضوء صلى ركعتين، وإذا قام أحد من مجلسه للوضوء ورجع، سأله: هل صليت ركعتي الوضوء؟ بل ربما قام من مجلس القضاء للوضوء فإذا عاد صلى الركعتين، والخصوم جلوس ينتظرونه وكان كثيراً ما يردد دعاء أئبنا إبراهيم عليه السلام ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] ثم يقول: هو الثناء الحسن والذكر الطيب!

ومما يروى عنه حبه للفقراء والمساكين، ما ذكره الكثير من الناس أن الشيخ في بداية عمله بالقضاء، كان حين يستلم راتبه يشتري بمعظمه أطعمة يوزعها على المحتاجين من

جيرانه، ولا يأتيه رجل تحمل حمالة أو غمماً أو فقير عاجز، أو مسكين بائس إلا كتب له يحث الناس على مساعدته ومد يد العون له، وكان مجرد توثيق الشيخ له كافياً لكي يجعل الناس يسارعون إلى إعانتته.

جاء رجل إلى الشيخ يشتكي أقاربه الذين حالوا بينه وبين الزواج من إحدى الأسر، فأحضرهم الشيخ وقال: إذا رفضتم هذه الأسرة، فأعينوه ليتزوج من غيرهم، وهذه مساهمة مني لزوجهم، ودفعت لهم جزءاً كبيراً من مهره.

لقد كان يقرب الفقراء والمساكين في مجلسه، ويحبهم ويكرمهم غاية الإكرام ويكسوهم الملابس ويطعمهم الطعام كل يوم جمعة، ويدعوهم لولائم الخاصة دائماً، بل إن مائدته اليومية يندر أن تخلو من عدة مساكين يتناولون الطعام معه جنباً إلى جنب، ويسأل عنهم إذا غابوا ويزورهم في حال مرضهم، ويصرف على إعاشتهم بشكل شهري ويشفع لذوي الحاجات عند الولاة، وبابه مفتوح يدخله الغني والفقير وطلبة العلم والزائرون من كل بلد، فهو كما قال عنه الملك فيصل رحمه الله جلسائه: إن هذا الرجل ليس هذا زمانه، فالرجل من بقية السلف الصالح.

وقال ابنه الشيخ سليمان: كان والدي عند عزمه على الحج، يصحب معه كل قريب أو جار لم يسبق له الحج ليم فرضه معه، وكان في سني الحاجة إذا اشترى كيس سكر أو أرز وزعها على المحتاجين ولا يبقى للبيت سوى نصف ذلك. وكان جل وقته لقضاء مصالح الناس الشرعية، فبعد فترة الدوام الرسمي في رئاسة محاكم القصيم وذهابه إلى منزله، يظل أصحاب الحاجات يراجعونه في منزله ومسجده وربما لحقوه في مزرعته التي يستريح بها بعض الأيام بعيد العصر وربما المغرب، وفي هؤلاء من يستفتيه ومن يسعى في حق عام، ومن يطلب شفاعته، أو ليصدق على وثيقته أو ليكتب له ليستعين بالله ثم بإخوانه المسلمين على وفاء دينه. . وكان يستقبل أولئك كلهم بابتسامته، وحلمه وسعة صدره ولا يضيق بأحد، بل يحتفي بهم بأريحيته المعروفة، وكرمه المعهود، وكان لصفاء نفسه ونقاء فطرته يحسن الظن بالناس جميعاً، ويستجيب لدعوات الناس في منازلهم ويحرص

على مناسباتهم، ويعود المريض، ويهنيء المسرور، ويعزي المصاب، وكنت ترى فيه شمائل العالم الصادق النزيه الذي خالط الناس، ويصبر على أذاهم، ويشاريهم ويبياعهم، ويشاركهم حياتهم حلوها ومرها. . . !

ويذكر الأستاذ عبدالكريم الطويان أنه زاره قبل بضع سنوات بعد صلاة العشاء في منزله المفتوح للناس، وبينما هو يتحدث إذ دخل عليه أحد أعيان البلد، فتحدث معه عن حاجة مدينة بريدة إلى توسعة مسجد العيد الجنوبي. . . لقد كان الشيخ «الخريصي» يسعى ويشفع لإنجاز كثير من المرافق الدينية العامة، ويقدم وساطته لأصحاب الحاجات وتقبل شفاعته، وتلب طلباتهم، فكم سعى - رحمه الله - لتأسيس مقبرة أو تسويرها، أو لحضور خطة مسجد، وتحديد قبلته.

وذكر ابنه الشيخ سليمان أن الشيخ صالح دخل على الملك فيصل - رحمه الله - يعرض عليه إنشاء مقبرة لإحدى المدن ثم دخل عليه بعد ذلك شخص آخر في حاجة له، فقال لجلسائه: هذا الشيخ الخريصي جاء من بريدة ليطلب تأسيس مقبرة، وذلك جاء لحاجة خاصة به. . . !

وكان دائماً في طليعة الاجتماعات العامة التي تعقدها جمعية البر الخيرية ببريدة، وجماعة تحفيظ القرآن الكريم بالقصيم، وأحد المتحدثين في هذه الاجتماعات، وإذا توفي أحد العلماء الكبار صلى عليه بنفسه وشيَّعه للمقبرة.

وكان له أعمال جبارة في مجال الدعوة إلى الله والتي هي أحسن وله باع طويل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بطرق حكيمة لاحتواء المفاصد ومعالجتها بأسلوب حكيم، فكثير حامدوه، واهتدى على يديه - بتوفيق الله - خلق كثير.

وحدث الأخ أحد جيران الشيخ، فقال: لما انتقل الشيخ من حيه القديم، وسكن في منزله الجديد بجوارنا وصلى بالناس في أحد لأوقات وكان خلفه عدد قليل من المصلين، ولما أتم الصلاة، فإذا الذين يقضون الصلاة ضعف العدد، فتوجه إلى المصلين يعظهم ويخوفهم من التفريط والغفلة.

وكتب الدكتور حسن الهويل مخبراً عن الشيخ يقول: «عندما عينت مديراً لمكتب الضمان الاجتماعي ببريدة كان - رحمه الله - إذ ذاك رئيساً لمحاكم القصيم زرته في بيته لإبلاغه، واسترشاده فدعاني بالخير، وقال اسمع يا بني «هذا الكرسي الذي تحل به اليوم، ستبرحه يوماً ما، إما بالوفاة أو بالترقية، أو بالنقل، وأنت بين يومين، يوم البدء ويوم النهاية، فلا تشغلك فكرة البدء عن موقف النهاية، فكر في اليوم الذي ستترك فيه هذا الكرسي، واعمل ما يحفظ لك ذكرك ودينك ويؤنس وحشتك» لقد كانت تلك الكلمات محفورة في ذهني كلما ذكرتها دعوت له، وكلما تسنم عزيز منصباً وبيتها له».

رؤى صالحة:

كتب الأستاذ عبدالعزيز الدباسي، يروي عن القاضي الشيخ علي الصقعبي أنه قال: «كنت في إحدى مدن القصيم قاضياً وفي أحد الأيام نمت بالليل وأنا أفكر في مسألة من المسائل، فرأيت في النوم شيخ الإسلام «ابن تيمية رحمه الله فقال لي: إن المسألة في المجلد وأخبر برقمه، ثم قال: اذهب إلى الشيخ صالح الخريصي، فإن فيه بركة، يقول القاضي المذكور: فلما قمت ذهبت إلى بريدة، وأتيت إلى الشيخ صالح في المحكمة، وسألته عن المسألة فأجابني إجابة شافية ثم قصصت له الرؤيا، فبكى الشيخ صالح، وأمسك بعصدي، قال: لا تذكرها حتى ألقى ربي، ولكن القاضي «الصقعبي» مرض وأحسب أنه مرض الموت، فأخبر بها، رحمها الله جميعاً».

وروى القاضي الشيخ علي بن إبراهيم المشيقح في مقدمة كتابه: «العقيدة الجامعة الكافية» تفاصيل رؤيا طويلة أريها يوم 7/9/1399 هـ حيث رأى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وراجع معه بعض المسائل العلمية، ثم يقول في ختم ما ذكر: «وبينما نحن نتحدث معه إذا مستأذن يقرع باب المجلس، فقامت إليه، وفتحت الباب فإذا هو الشيخ صالح بن أحمد الخريصي فقلت له هذا شيخ الإسلام ابن تيمية فدخل ومعه أناس، وفرح بشيخ الإسلام فرحاً شديداً، وعند ذلك استيقظت، وكتبت الرؤيا».

وفاته:

في صباح يوم الاثنين الثامن والعشرين من شهر رمضان من عام ١٤١٥ هـ توفاه الله تعالى وصار لوفاته صدى كبير ورنه أسمى عامة، وأحس الناس بقدمة بصدمة، وفرح سكان القصيم لحضور الجنازة، مما اضطر القائمون على تجهيزه من الصلاة عليه في مصلى العيد بعد صلاة الظهر لشدة الزحام، ولم يرض المشيعون بحمل جثمانه بالسيارة، وإنما حملوه من المصلى على عناقهم يتزاحمون على ذلك إلى المقبرة وصارت الصلوات تقام عليه جماعة بعد جماعة تصلى عليه في المقبرة، وصلى عليه صلاة الغائب في الحرمين المكي والمدني وفي المساجد عامة في المملكة.

عقبه:

خلف الشيخه رحمه الله عدداً من الأولاد بنين وبنات، والبنون أحد عشر ابناً، بعضهم طلاب علم.

رثاؤه:

قال الشيخ عبدالله البسام: لقد كان الشيخ يمثل سلف هذه الأمة في علمه ووقاره وسمته، وكان عليه سيماء العلماء الذين جملوا علمهم بالعبادة وإدامة الشكر والإعراض عما لا يفيد والإقبال على ما يدخر للأخرة من الأعمال الصالحة».

ويقول الشيخ إسماعيل بن سعد بن عتيق: «لقد كان الشيخ أحد العلماء الأفاضل الذين جمعوا بين الأطراف، فهو العالم العابد الكريم السخي الشجاع الماهر في حل القضايا سليم الطوية، بصير النظر، صامت إلا بذكر الله أو ما ينفع به نفسه أو غيره، لا تكاد تسمع له صوتاً إلا على منبر أو في محراب صلاة أو إلقاء دروس أو إدلاء بموعظة، قد يضم مجلسه عشرات إلى حد المائة فلا تسمع صوتاً إلا التسبيح أو التهليل أو ذكر الله ثم ملاحظة الشيخ في جلسته وهيئته مع الترقب لما يقوله وقد ينفص المجلس ونحن كذلك

كأن على رؤوس الجالسين الطير، ليس بفظ ولا غليظ ولا صحاب فأوامره إشارة وتوجيهاته من نظراته وحركاته البسيطة يفهمها أولاده ومن في خدمته، وقد يأمر بالأمر الكبير في همسه أو في نبرات صوته الخافت فيتبادر المأمورون بتنفيذ أمره .

وقد قيلت في الشيخ بعد وفاته مرات كثيرة نذكر منها قصيدة للشاعر عبدالعزيز بن

عبدالرحمن اليعبي جاء فيها :

عظم المصاب وحارت الأفهام
وسألتهم في دهشة ماذا جرى؟
شيخ الورى بحر الندى علم
من لم يخف في الله لومة لائم
كهف الديانة والمروءة والتقى
جمع عظيم في مصلى عيدنا
نعش على الأكتاف يحمل عالماً
من ذا سيخلف شيخنا في نهجه
نبكي الخريصي الشهير المرتضى
بدر القصيم ونوره بل قطبه
فرحيل أهل العلم خطب فادح
بالأمس كنا نازلين بسوحهم
فمضوا سراعاً والحياة مريرة
فالموت حق والفناء مصيرنا
وعلا الشيخ وضجت الأقسام
قالوا: توفي في القصيم إمام
الهدى العالم العلامة المقدم
ولذا نعاه بوقتنا الإسلام
بحر العلوم القانت القوام
ينعون شيخاً حقه الإكرام
والناس تبكي والطريق زحام
لو أكثر الحساد واللوام
ما دامت الساعات والأيام
والقول هذا ليس فيه ملام
لله في تقديره أحكام
للقب في تلك الرياض غرام
فعلى الدنا بعد الهداة سلام
ومصير ما فوق التراب حطام

المراجع :

- ١- عبدالله بن عبدالرحمن آل بسام، علماء نجد خلال ثمانية قرون، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ.
- ٢- إبراهيم بن عبدالله الحازمي، من أعلام القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر، دار الشريف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
- ٣- عبدالعزيز بن صالح العسكر، من أعلامنا، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.
- ٤- فهد بن سعد الكليب، علماء وأعلام وأعيان الزلفي، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
- ٥- عبدالكريم صالح الطويان، الشيخ الخريصي راحل كان على الأمر الأول، المجلة العربية عدد ٢١٥ ذو الحجة ١٤١٥هـ.
- ٦- صالح الزهراني القضاء والقضاة في العهد السعودي، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
- ٧- إسماعيل بن سعد بن عتيق، الشيخ بن أحمد الخريصي مع السالفين الأبرار، مجلة الدعوة عدد ١٤٨٣ الخميس ١٥ شوال ١٤١٥هـ.